

يوميات سجين عراقي في معتقل " قصر النهاية "

عبدالخالق زنكنة أحد الناجين من برائن السجن الأسطوري يروي تفاصيل اعتقاله ولحظات مكوثه المقترنة بويل التعذيب المقيت بين جدران صامته وقضبان صدئة



ميدل ايست أونلاين
برلين - من ملهم الملائكة

اختلف العراقيون بشأن أصل "قصر النهاية " ، لكن احدا لم يختلف حول الالهوال التي جرت على المساكين الذين القي بهم في هذا المعتقل المرعب المخصص للتعذيب الوحشي وانتزاع الاعترافات من المتهمين ، هو اختراع بعثي من عام 1963 ، وقد مر كثيرون به ولم يخرجوا منه . عبدالخالق زنكنة النائب السابق في البرلمان العراقي وفي برلمان كردستان هو أحد الناجين من معتقل " قصر النهاية" الأسطوري المرعب في العراق ، وقد حاوره ميدل ايست أونلاين في برلين عام 2014 على هامش مؤتمر جمعيات ومنظمات حقوق الانسان العراقية في الداخل والخارج ، فروى من يوميات قصر النهاية بما سمحت به ذاكرته السبعينية .

عاش عبدالخالق زنكنة تفاصيل مرعبة في المعتقل الاسطوري الذي افترنت نشأته بانقلاب 1963 لحكام البعث حيث وقعت مذبحة رهيبه، قتل نحو 10 الاف عراقي خلال اسابيع قليلة بتهمة الشيوعية وجماعة المرحوم عبدالكريم قاسم (دون محاكمات) .

سُمي قصر النهاية نسبة الى امرين ، فهو قصر الزهور الذي شهد نهاية العائلة المالكة في العراق صبيحة 14 تموز/ يوليو 1958 ، اما الامر الثاني فهو ان من يدخل هذا المعتقل قد يصل نهايته ! إذ لن يخرج حيا منه ، يقع القصر/ المعتقل في جانب الكرخ من بغداد خلف معرض بغداد الدولي وتصله عبر جسر الخر ، وقد تحول فيما بعد الى مبنى تابع لرئاسة المخابرات العامة في عصر حكم صدام حسين .

تحدث زنكنة عن تاريخية القصر قائلا "كان مهملأ بعد ثورة تموز / يوليو 1958 ضمت حديقة وملعباً لكرة القدم ، وقد لعبت فيها انا شخصياً ، في دورة خاصة اقيمت في بغداد عام 1961 لفرق الشباب لمحافظات العراق" .

بداية العذاب

روى زنكنة ظروف اعتقاله وفترة مكوثه في المعتقل بتفاصيل واضحة "اعتقلت في عام 1971 بعد أن أعترف علي (ت . أ) وهو أحد قيادي الحزب الشيوعي العراقي وقد اعتقل قبلي وانتزعت منه اعترافات عن باقي اعضاء تنظيم لجنة بغداد ، بل أنه سلمني ومعني احدي الاخوات (ز.ب) لعناصر الأمن في 14 نيسان / ابريل عام 1971 ، وقد ربطوا عيني ونقلوني بالسيارة الى قصر النهاية ، وكنت ارى توجه السيارة من خلف الرباط، وحين وصلت المكان ، سألتني احد عناصر الامن عن درابتي بالمكان ، أجبته بنعم اني في قصر النهاية" .

وعن بداية رحلة التعذيب وراء القضبان الصدئة قال النائب السابق في البرلمان العراقي "بدأوا بحفلة التعذيب التي استمرت (39) يوما قضيت اغلبها معلقا من ذراعي المربوطتين خلف ظهري برافعة ، وقد شل ذراعي الايسر لفترة بسبب التعليق الطويل ، كما تعرضت الى ضغط راسي بالممكنة (اداة حصر الحديد والخشب في معامل الحدادة والنجارة) ، نعم قضيت فترة (39) يوماً في التعذيب بزنازة انفرادية ، وكان نهجهم اذا لم يعترف الشخص بيقوه في زنازين انفرادية ، ولا ينقلونهم الى القاعات العامة المشتركة للمعتقلين" .

تفاصيل الحياة في المعتقل

عن كيفية العيش في قصر النهاية ، ونوعية الأكل واللباس والظروف المقيتة التي تلف حياة أي شخص يلج دواليب المعتقل قال زنكنة "بقيت كل المدة التي قضيتها في المعتقل في غرفتي الانفرادية ومساحتها نحو مترين طولاً الى متر ونصف عرضاً ، وكانوا يأخذوني مرة واحدة في اليوم الى المرحاض ، ويمهلوني بضعة دقائق فيها ، ثم يستعجلني عنصر الامن بالتهديد والشتائم ان اخرج معه بسرعة " .

"الطعام كان عبارة عن رغيف خبز واحد (صمونة) لا غير طيلة اليوم تلقى الي من كوة صغيرة في شبك باب الزنازة ، لا يوجد في الزنازة أي شيء ينام عليه الانسان ، سوى اسمنت ارضيتها الوسخ الرطب ، في الغرفة المجاورة كان يجري التعذيب فيها بواسطة كرين (رافعة) ذات سلسلة مدلاة ، ويوجد كرسي مثبت ، وعلى ظهره تثبتت ممكنة (ضاغطة حديدية) " .

" كان يعذبونني في الغرفة المجاورة للزنازة التي كنت معتقلاً فيها ، كنت اغادر هذه الزنازة مرة واحدة في اليوم الى التواليت ، ولم يكن يخرج من جوفي شيء لاني لم اكن اكل اصلاً ، بل اني كنت احاول ان اخرج أي شيء من جوفي بلا جدوى ، خاصة ان الحرس الواقف على رأسي لم يكن يمهلني كثيراً ويصرخ بأعلى صوته عليّ لأسرع ، اما التبول فلم يكن كثيراً لاني لم اكن اشرب الماء الا مرة واحدة او مرتين في اليوم ، وكنت اتبول في نفس زنازتي على الجدار في زاوية الغرفة ، وكنت اسمع اصوات وبكاء وعويلاً من الزنازات الاخرى ولكنني لم اكن ارى احدا منهم " .

إطلالة ناظم كزار

أكد عبدالخالق زنكنة أن المرة الوحيدة التي رأى فيها شخصاً مسؤولاً في المعتقل وغير معصوب العين ناظم كزار مدير الأمن العامة آنذاك ، وكان شخصاً شرساً وسافلاً بكل معنى الكلمة ، وسأله هل تريد ان تصبح شهيداً وتظهر صورتك كمناضل في جريدة الحزب ؟ سأريك ذلك ، سأجلب لك خبيراً خاصاً لتعذيبك !! .

قال زنكنة أنه كان لا حول ولا قوة له في تلك اللحظة "كنت ساقطاً على الارض مسجاً ، وناظم كزار يضع حذاءه على راسي ، ثم جاءوا بالشخص القيادي الذي اعترف عليّ ، وهو (ت . أ) ، وحين رأي في ذلك الوضع انهار وأخذ يصرخ بشكل هستيري ويقول " ماذا تريدون مني لقد اعترفت ، ما ذنب هذا الرجل ؟ " وأخرجوه من قاعة الإستجواب .

الخروج من الظلمات إلى النور

ضغوط كثيرة حصلت لإطلاق سراحي وآخرين من المعتقل الرهيب ، وحول هذه التدخلات قال "حدثت تدخلات داخلية ودولية وضغط خاص من وفد سوفيتي كان يزور بغداد ذلك الوقت لتطويع العلاقات مع حكومة حزب البعث في العراق ، وأنذاك كان البلد يعيش اجواء لتهينة تحالف وطني بين البعثيين وبين بعض الاحزاب العراقية ، لكنه لم يكن تحالفاً معلناً آنذاك، من هنا كان الرأي العام له بعض الاثر على قرارات البعثيين ، وبعد اعتقالهم لعدة شخصيات قيادية في الحزب الشيوعي ، ضغط عليهم الاتحاد السوفياتي فأطلقوا سراحنا ، وعرفت ذلك من حديثهم ، حيث نُقلت فجأة بالسيارة مربوط العينين من قصر النهاية الى مديرية الأمن العامة الواقعة مقابل القصر الابيض ببغداد ، فقال لي احدهم " روح .. انت خلصت ، فقد تدخلت جهات عليا وانقذتكم " .

وعن ما رواه من افكار وتخيلات أثناء فترة اعتقاله أفاد زنكنة " خلال 39 يوماً في قصر النهاية لم أشعر قط بأني إنسان ، وقد أغمي عليّ مراراً في التعذيب ، ولكنهم كانوا يرشون علي الماء ، فاصحو من الغيبوبة ، واندم لأنني لم امت ! كان ذلك التعذيب يجعلني اتمنى الموت في كل لحظة ، لقد عاملوني اسوأ من معاملة الحيوانات ، كنت لا أعرف أن كان الوقت ليلاً ام نهاراً ، فالنور الوحيد كان يتسرب الي من كوة شبك الباب، ويأتي من مصباح الممر ، وكانت الزنزانة سرداباً تحت الارض ، وكنت انزل سلمة او سلمتين فقط لأسير الى زنزانتني ، وفي احدى المرات سمعت صرخات لأحد المعتقلين من الاحزاب الإسلامية الشيعية ، لم أعرف من هو ، ولكنه كان يصرخ بصوت عالي بسبب قسوتهم المفرطة معه في التعذيب " .

"دخلت المعتقل بسروال وقميص وحذاء ، وبقيت ارتدي هذه الملابس طيلة الاسابيع الستة ، وبانت ملطخة بالوسخ والدماء ، ثم اطلق سراحي بنفس الملابس ، في اعتقال تصفي دون تهمة رسمية مثبتة ضدي ودون محكمة ودون مذكرة اعتقال ، ولو ذهبت الآن لابحث عما يثبت اعتقالني في قصر النهاية ، فلن أجد له ذكراً في أي كتاب رسمية ، ربما ساجد محضراً لاعتقالي بضع ساعات في مديرية الأمن العامة ، لاسيما وأنهم قد صوروني هناك ، وهذا كل شيء ، وقد سألني عناصر الامن بضعة اسئلة ، فهمت من خلالها إتهم لا يعلمون بتفاصيل التحقيق الذي خضعت له في قصر النهاية ، وبعد ذلك اطلقوا سراحي ، وكنت خائفاً وأنا اسير في الشارع أن يقتلوني ، لأنه كان شانعاً في تلك الأيام أن سيارة مجهولة تدهس كل من يخرج من زنزانات الأمن العامة " .

روي زنكنة تفاصيل خروجه من سرايب المعتقل ووصوله إلى بيت ابيه آمناً في منطقة الدورة ، علماً عندما خرجت من دائرة الأمن سألتني المسؤول أين تسكن واخبرته بأنني اسكن في كركوك فأخرج ديناراً واحداً كمصروف للسفر الى هناك ، علماً أنهم جردوني من كل شيء في قصر النهاية ، بما في ذلك هويتي الزانفة كطالب في كلية الهندسة ، لكنني رفضت ان اخذ المبلغ منه ، وعلق قائلاً : هذا يعني انك راجع الى الحزب ، ثم جاء شخص وحلق وجهي بسرعة حتى انه جرح خدي لسرعته واهماله ، وفي حوالي الساعة الثانية عشر ظهراً وجدت نفسي اصعد في حافلة ركاب صغيرة من ساحة التحرير متوجه الى منطقة الدورة، ولم ادفع الاجرة ، فظل السائق يسأل : من لم يدفع أجرته لعدة مرات ؟ فأجبتته معترفاً: انا ، لأنني لا املك مالاً ، فنظر الى حالي ، ثم سكت وعفا عني ! وصلت بيت أبي ، فسقطت ارضاً ، فجاءوا لي بوسادة وفراش ونمت ، وعصراً عاد والدي من العمل ووقف على رأسي وسألني " خو ما اعترفت على رفاقك وأصدقائك ؟ " ، فقلت له : لا يا أبي ، فنزلت الدموع من عينه وخرج من الغرفة وتركني مسلتقياً في الفراش .

نهاية الجحيم

تحدث زنكنة عن كيفية زوال قصر النهاية "بعد اعلان الجبهة الوطنية ، وبعد شكاوى الاحزاب التي شاركت في الجبهة في اعوام 1974 ، 1975 ، وفي عام 1976 ، قرر صدام حسين ان يلغي قصر النهاية بمثابة عربون لتحالف الحزب الشيوعي العراقي مع البعثيين ! وصدر قرار رسمي بإغلاق قصر النهاية أعلن في كل وسائل الاعلام الرسمية ، والحقيقة ان المعتقل لم يكن القصر الملكي نفسه تحديداً ، بل المبانى الملحقة بالقصر ، اما المبنى التاريخي لقصر الزهور فقد الحلق بمباني رئاسة المخابرات العراقية ، ولا ادري كيف انتهى " .

"في ذاكرتي واقعة اخيرة في قصر النهاية خلال نفس الفترة من اعتقالني .. اعتقل أيضاً عدد من قيادي الحزب الشيوعي بينهم (ثابت العاني) واستشهد في التعذيب المناضل (علي البرزنجي) ، كان احد المسؤولين في الخط الخاص للحزب آنذاك " .

و"أمانة للتاريخ ، أذكر هنا أن قصر النهاية كان معتقلاً للشيوعيين والاسلاميين والقوميين الناصريين ، وحتى عناصر من البعث اليساري ، وكذلك الذين كانوا يسمونهم الموالين لانقلاب تشرين في سوريا ، اعتقل في هذا القصر العديد من الشخصيات المعروفة بعد انقلاب الثاني لحزب البعث في 17/تموز/1968 ، بينهم طاهر يحيى (رئيس وزراء العراق حتى عام 1968) ، وسكرتيره (علي سلامة) والوزير السابق (أحمد الحبوبى) وآخرين من المسؤولين في قصر النهاية ، وكذلك مجموعة من القيادة المركزية المنشقة عن الحزب الشيوعي (جماعة عزيز الحاج) كانوا أيضاً من ضيوف قصر النهاية ، باختصار هو كان معتقلاً لكل السياسيين المختلفين مع سياسة حزب البعث " .

وللتنويه هناك اختلاف في نسبة قصر النهاية الى قصر الزهور الذي شهد مأساة قتل آخر ملوك العراق وعائلته وسحل اجسادهم في شوارع بغداد عام 1958 ، أو الى قصر الرحاب الذي كان من قصور العائلة المالكة في العراق الذي يقول البعض انه تحول الى قصر النهاية ، ولم يمكن التحقق بشكل نهائي عن صحة المعلومة .